الضمـــــــــير

بقلم الاستاذ محمد مهدى علام

أستاذ التربية والفلسفة بدار العلوم وقسم التخصص

الاستاذ مهدي علام من خيرة الشباب العلماء ، الذين جمعوا الى الثقافة العربية الثقافة الغربية ، وهو يحق أحد الاساتذة المجدين الذين تفخر بهم دار العلوم ؟ المحرر

خطر فى ذات يوم للقاضى (كورت ريت) الكندى أن يشرب الخمر ؛ فتجاوز الحد فى شربه، حتى عاد غير قادر على الوقوف على قدميه ، وخرج من الحانة وهو على هذه الحالة ؛ فلما عرفه رجال الشرطة نقلوه إلى بيته . وشاع الخبر فى المدينة ، وتناقلته الألسن ؛ وزادت فيه وجسمته وفقاً لأغراض البعض وميولهم ، فلما استوى القاضى (كورت ريت) فى اليوم التالى على منصة القضاء، وهم كاتب الجلسة بتلاوة أسماء المتنازعين والمتخاصمين أوقفه القاضى ، وأخبر الحاضرين بأنه يريد أولا محاكمة القاضى (كورت ريت) الذى وجدته الشرطة فى اليوم الماضى سكران على قارعة الطريق ، وفى الحال أخذ يخاطب نفسه قائلا: اسمك كورت ريت، وصناعتك قاض فى مدينة (وينيبج) الكندية ؛ حسن ! هذه أول مرة فى حياتك تسكر فيها ؛ ولكن نص القانون صريح ، لأنه يحرم السكر قطعياً ، والقانون يجب أن يسرى على كل إنسان بدون تطلع إلى مركزه وأهميته الاجتماعية ؛ غير أنى نظراً لماضيك الجيد الذى لا تشوبه شائبة حكمت عليك بغرامة قدرها عشرون دولاراً مع إيقاف التنفيذ ، وأملى ألا تعود إلى مثل هذا العمل الذى يحط من قدرك ، ويضيع هيبتك أمام الناس ، وإلا حكمت عليك بالسجن ؛ وبدفع هذه الغرامة أيضاً .

وبعد أن حكم هذا القاضى على نفسه بهذه الكيفية ، طلب إلى كاتب الجلسة أن ينادى الأسماء ، وجلس هادئا ساكنا للفصل فى قضايا المتنازعين (١).

ترى ما الذى حمل هذا القاضى على أن يفعل ما فعل ؟ إن هو إلا صوت الضمير يهمس فى أذن المرء لدى شروعه فى كل عمل ، ليقره عليه إن كان حسناً ، وليبغضه إليه إن كان قبيحاً ، أو يؤنبه من أجله إن كان قد وقع فعلا .

فالضمير إذن هو السراج الوهاج الذى منحه الله تعالى كل فرد لكى يضىء له سبيل الحياة ؛

(١) نقلا عن صحيفة مصرية صادرة فى العام الماضى بتصرف قليل فى الالفاظ .

أما السراج فمع كل إنسان ، وأما وهجه فيختلف باختلاف الناس : فمنهم من سراجه وهاج ، ومنهم من سراجه مضيء ، ومنهم من سراجه مومض ، ومنهم من سراجه مظلم لا نور فيه ؛ وبعبارة أخرى : منهم ذو النفس الراضية المرضية ، ومنهم ذوالنفس التى إن فاتها أن تحول بين صاحبها والقيام بعمل الشر ، فلن يفوتها أن تلومه على عمله ، وتسلقه بألسنة حداد ؛ ومنهم ذو النفس الأمارة بالسوء ، وذوالنفس المظلمة التى ليس فيها شعاع من أشعة الهدى ، ولا بريق من سراج الضمير .

ويتضمن الضمير أمرين : أولها إدراك الفرق بين الحق والباطل ، وثانيها الشعور بوجوب اتباع الأول وتجنب الثانى .

وللضمير ثلاث مراتب :

١ — فقد يصدر حكمه قبل الشروع فى العمل ، كما إذا كنت تفكر فى الانتفاع بمقدار من المال، وكان عندك رغبتان : إحداها للاتجار به ، والأخرى لاقراضه بالربا ، فإذا ضميرك يناديك: «وأحل الله البيع وحرم الربا»، وهو فى هذه الحالة يرشدك إلى الخير ويحذرك من الشر.

٢ — وقد يرتفع صوت الضمير فى أثناء قيامك بالعمل فعلا ، وهو فى هذه الحالة يؤيدك فى اختيارك ويسدد خطاك ، إن كان العمل حقا ، ويعارضك ويقيم فى سبيلك العقبات ، إن كان العمل باطلا .

٣ — وربما جاء صوت الضمير بعد إنفاذ العمل، وهنا تحس بسرور وابتهاج إذا علمت أن ضميرك قد أقرك على ما فعلت ، أما إذا لم يكن عملك الذى عملت موافقا الحكم الذى يصدره ضميرك : فانك تشعر بحزن وانقباض : تشعر بأنك قد امتهنت كرامتك ، وجرحت عزتك ، وأتيت أمراً إداً .

يتبين لنا مما تقدم أن حكم الضمير على عمل من الأعمال يستتبع الشعور بواجب من الواجبات لا تجوز مخالفته ؛ فالأعمال التى نحكم بأنها حق يجب علينا أن نعملها ، والأعمال التى نعلم بطلانها يجب علينا أن نتجنبها ، وإن نحن حدنا عن تنفيذ ذلك ، كنا فى الحقيقة مقدمين على : انتحار خلقى ، وانتحار عقلى ؛ أما الأول : فلأننا نخالف الواجب الذى نشعر به ؛ ونصم آذاننا عن النداء الباطنى الذى يحفزنا إلى ما فيه منفعتنا ؛ وأما الثانى : فلأننا نناقض أنفسنا باعتقادنا أمراً وعملنا نقيضه . وفى ذلك يقول ابن المقفع :

« عمل الرجل فيما يعلم أنه خطأ هوى، والهوى آفة العفاف ، وتركه العمل بما يعلم أنه صواب تهاون، والتهاون آفة الدين ؛ وإقدامه على ما لا يدرى أصواب هو أم خطأ جماح ، والجماح آفة العقل » (١) .

(١) الادب الصغير ص ٥١ طبعة مدرسة محمد على الصناعية .

سلطان الضمير : قلنا : إن سلطان الضمير يختلف باختلاف الناس : ذلك أننا قد نقوى سلطان الضمير علينا ، وقد نضعفه ، بمقدار خضوعنا لأوامره .فاذا خالفنا ما عليه علينا مرة من المرات ، سهل علينا أن نخالفه ثانية فثالثة ، ولا سيما إذا كان لنا فى المخالفة : جلب مسرة ، أو دفع ألم (ولو كان الحصول على تلك المسرة ، أو دفع ذلك الألم وقتيا) ، حتى تصبح تلك المخالفة أمراً عادياً، وعندئذ يضعف سلطان الضمير الذى كان يوماً من الأيام قاهراً غلابا ، ولقد يؤول أمره إلى الموت، وعند ذلك يصبح صاحبه ميتاً من الوجهة الأخلاقية،وتخلف قوة البحث عن الحق فى المرء قوة جديدة ، هى قوة البحث وراء التلذذ من سبيل الشر ، عندئذ تتغلب على المرء الناحية الشريرة من نفسه ، تلك الناحية التى وصفها الله سبحانه وتعالى بأنها:النفس الأمارة بالسوء .

ولا شك أن عمل الضمير بعد حدوث الفعل : أيسر من عمله قبل الحدوث ، أو فى أثنائه، لأن الظروف والأحوال التى كانت تتخيل قبل حدوث الفعل ، والتى كان الضمير يبنى حكمه على تخيلها : أصبحت الآن حقائق ملموسة ، إذ نحن نعلم الآن أن عملا خاصا قد تحقق . وإن يكن أمامنا باب ما يترتب عليه من النتائج مفتوحا ـ على أن عمل الضمير فى هذه الحالة ليس من السهولة بالمقدار الذى نتصور ، فانه على الرغم من أن العمل قد وقع فعلا ، وأن مسألة احتمال وقوعه وعدم وقوعه ليست موضع نظر ، ليس عمل الضمير هنا عمل المؤرخ الذى ينظر إلى حادثة تقدمت ليقول فيها كلمته تحبيذاً أو طعنا .

إن حكم الضمير هنا متعلق بالحاضر ، ومنصرف عنه إلى المستقبل . وبيان هذا : أن ذلك العمل الماضى (أو تلك العزيمة أو الارادة التى نفذت) إن كان قد فاز بتأييد حكم الضمير له ، فان الأمر لا يقف عند هذا الحد ، بل يتجاوزه إلى تقوية الميل والاستعداد عند ذلك الشخص لاتباع مثل ذلك العمل الذى أقره الضمير ، ولسلوك تلك الطريق التى حبذها ، وفى هذه الحالة تسود الطمأنينة نفس المرء ، وينعم الرضا قلبه ، وتلك هى الحالة التى وصفها المولى جل وعلا ، بأنها : النفس المطمئنة الراضية المرضية ، وإن كان العمل الذى انقضى قد باء بسخط الضمير وتهمته ، فان الاستعداد لهذا النوع من الأعمال يضعف ، ويقوى على أنقاضه ـ طبعا ـ ميل الى العمل فى الاتجاه الذى يضاده : وفى هذه الحالة يحصل تأنيب الضمير والندم والتوبة ، وتلك هى الحالة التى وصفها العليم الحكيم بأنها : النفس اللوامة .

الضمير والارادة : وقبل أن نتكلم فى الندم والتوبة نستكمل بحثنا فى عمل الضمير بالقياس إلى الأعمال قبل الشروع فيها. ولقد تكلمنا فيما تقدم عن أعمال الانسان وحكم الضمير عليها سواء أكانت تلك الأعمال قبل الشروع فيها ، أم فى أثناء إنفاذها ، أم بعد الفراغ منها ؛ ولكن أحكام الضمير ليست مقصورة على الأعمال، بل هى تتناول حالات أخرى تمس الأخلاق، وإن لم تخرج إلى حيز الوجود ، تلك الحالات هى الارادات.

هبك كنت قد عقدت النية على أن تعطى لفقير يمت إليك بصلة قيمة من المال كانت ستصلك ربحاً لتجارة ، ولكن حدث ما من أجله كسدت تلك التجارة ، فلم تحصل على نقود ، ولم تستطع بناء على ذلك أن تمد يد المساعدة إلى ذلك المعوز ، كما كنت قد عزمت ؛ أو هبك كنت تريد أن تقامر بتلك القيمة ، ولكن عدم حصولك عليها حال بينك وبين ما تشتهى من المقامرة ، فما عمل الضمير فى هاتين الحالتين ؟ هنا يصدر الضمير حكمه على تينك الارادتين ولو لم تنفذا ، ولو لم يترتب عليهما نتائج : يصدر حكمه بالارتياح إلى الأولى ، والنفرة والاشمئزاز من الثانية .

وليس حكم الضمير فى هـذه الحالات عديم القيمة ، بل هو حكم له أثر عظيم فى تكوين خلق المرء ، فانه حين يحبذ النية الأولى . ولو لم تبرز إلى حيز الوجود . يبذر البذور لتحبيذ كل ما من شأنه مساعدة الفقراء ومد يد المعونة إليهم ، وإنه حين يحتقر النية الثانية . ولو لم تظهر فى صورة فعلية كذلك . يغرس فى النفس احتقار كل رغبة تدعوه إلى المقامرة ، ومقت كل هوى يميل به إلى الميسر .

ومن ثم ندرك مرمى الحديث الشريف : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » .

الندم والتوبة : إذا عمل المرء عملا ثم فكر فيه بعد أن عمله ، فشعر بألم نفسانى لذلك العمل أو لما ترتب عليه من نتائج ، فذلك الألم النفسانى هو الندم أو تأنيب الضمير ، فان انتقل المرء خطوة بعد هذه ، بأن حمله ذلك التأنيب على إصلاح نفسه وتحاشى ذلك العمل وما شابهه فى المستقبل ، فقد أخذت التوبة تدب فى نفسه ، ويمكننا إذن أن نقول : إن الندم توبة لم يصحبها الأمل فى إمكان الاصلاح ، ولم تحلها العقيدة بالقدرة على أن يكون سلوك المرء فى المستقبل أفضل من سلوكه فى الماضى .

على أن الندم أحيانا قد لا يجدى إجداء عمليا من حيث الأمر الذى وقع ، والذى من أجله يندم النادم ، فاذا يجدى ندم القاتل بالنسبة للمقتول ؟ فأنت ترى أن ليس هنا سبيل إلى إصلاح الماضى ، ولكن هذا لا يمنع الجانى من أن يندم ، وأن يكون ندمه عميقاً عمقاً يتكافأ مع فداحة الخطيئة التى أخطأها . نعم لا يستطيع القاتل أن يعيد إلى القتيل حياته ، ولا أن يعوضه هو عن تلك الحياة شيئاً كائناً ما كان ، فهذا سبيل قد أوصد فى وجهه بابه تمام الايصاد . إذ سبق السيف العذل ؛ ولكن هذه الاستحالة نفسها قد تكون من أكبر الدواعى لشدة الألم ، وعمق الندم ، فاذا انبثق فى نفسه نور الهدى ، واشتعلت نار العزيمة عزيمة أن يغير من تلك النفس الشريرة ، وأن يعترف بحق الحياة لغيره ، وألا يسلك مسلكا من شأنه أن يوقعه ثانية فيما وقع فيه أولا ، فهو تائب من غير شك ، على شرط ألا يعود ، أو بالأحرى : على شرط ألا يكون فى نيته أن يعود ، وإلا كان هازلا مستهزئا . قال الله تعالى : « إنما التوبة على الله للذين يعملون

السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم ؛ وكان الله عليما حكيما . وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار ، أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما » .

والسر فى ذلك التشريع الحكيم : هو أن التوبة الصادقة التى تذهب بالخطيئة يجب أن تكون قبل الموت ، حتى يكون هناك متسع من الزمن يظهر فيه التائب استعداده لتحويل مجرى حياته الخاطئة ، ويحول فيه ذلك المجرى فعلا ، حتى يكون استعداده الأول قد استؤصل تماما ، فيكون غفران السيئة له عملا معقولا مبرراً . أما هؤلاء الذين يتوانون فى التوبة ، ويصلون السيئة بالسيئة حتى يأخذهم الموت وهم لا يشعرون ، فليس لهم من الرحمة نصيب ؛ إذ لم يعد أمامهم وقت متسع لتغيير ما بأنفسهم : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

والاعتراف بالذنب خطوة ضرورية للوصول إلى التوبة ، وإلا : فمم يتوب التائب إذا لم يعترف بأنه قد اقترف إثماً ؟ ولعل ذلك هو السبب فى أن توبة كثير من الناس لا تبلغ أوجها ، ولا تؤتى ثمارها ، لأنهم فى الحقيقة يتلكئون فى اعترافهم بآثامهم ، وإن الاعتراف بغير توبة لأفضل من إعلان التوبة بغير اعتراف . يقول ابن المقفع : « الاعتراف يؤدى إلى التوبة ، والاصرار وعاء الذنوب » والحكمة الانكليزية تقول : « الاعتراف نصف الموقعة » (١) ، يقصدون للوقعة النفسية التى تنشب بين المرء ونفسه فى محاولة إصلاحها .

ولقد يحدث الندم والتوبة حتى مع عدم تحقق الجريمة فعلا . هب شخصاً كان قد اعتزم أن يشهد شهادة الزور ليلقى بها متهما بريئا فى أعماق السجون ؛ وهبه مرض يوم تأدية الشهادة فلم يستطع أن يؤديها ، ثم فكر فى الأمر ، فأدرك خطورة الموقف ومقدار الأذى الذى كان سينزله بانسان برىء ؛ ومقدار النقمة التى كان سينزلها من الله تعالى بعمله هذا ، فحمد الله على ذلك المرض الذى عاقه عن القيام بذلك العمل الذميم ، وشكر ذلك الظرف الذى جعل شهادته غير ممكنة ، والذى نجاه من هوة سحيقة كان على وشك أن يرتطم فيها ؛ إذا انعقد بكل ذلك فأقام حول أفكاره سوراً منيعا يمنع سيء الرغبات أن تتسرب إليها ، وألجم شهواته فكبح جماحها ، وأصبح لا يرحب بفكرة لا يقرها ضميره — إذا فعل كل ذلك فقد تاب ذلك الشخص وأناب .

إذا فهمت ذلك اتضح لك أن عين التوبة تتطلع إلى المستقبل ، يدفعها الأسف على مامضى ، ويجذبها الأمل فى إصلاح ما تبقى ، وأن عين الندم ترنو بحسرة إلى ذلك الماضى الذى لم يعد فى قدرة البشر تغييره ، لهذا كان المخطىء — وهو فى حالة ندم فقط ، فى حالة موت نفسى ؛ أما وهو فى حالة توبة حقيقية كالتى وصفناها فانه يكون فى حالة حياة نفسية عظيمة !

محمد مهدى علام

---

[1] CONFESSION IS HALFOF THE BATTLE